Journal of Social Sciences (COES&RJ-JSS)
ISSN (E): 2305-9249 ISSN (P): 2305-9494
Publisher: Centre of Excellence for Scientific & Research Journalism, COES&RJ LLC
Online Publication Date: 1st July 2020
Online Issue: Volume 9, Number 3, July 2020
https://doi.org/10.25255/jss.2020.9.3.706.732



Revelations of Place in Homesick Poetry of Sevilla
Analytical Semantic Study

Abedulla Mahmoud Ibrahim
Jordan University, Jordan
abdullah.mane@yahoo.com

Abstract:
This study aims at exploring artistic characteristics of the place in the homesick Poetry of Sevilla as there is an importance of the place in the Arabic poetry generally and Andalusian poetry specifically. This poetry expresses novel humanitarian meanings that were presented by very well-known poets such as Ibn Zaydun and Al-Mu'tamid ibn Abbad. The current study seeks to reveal the semantics and the emotions that are expressed by the poets. To achieve that, the study adopted the descriptive analytical methodology. The study found that the place has a vital existence in terms of the style of the used words in describing the places and their semantic usages.

Keywords:
Revelations, Place, homesickness Poetry, Andalusia, Sevilla
Citation:
Ibrahim, Abedullah Mahmoud (2020); Revelations of Place in Homesick Poetry of Sevilla Analytical Semantic Study; Journal of Social Sciences (COES&RJ-JSS), Vol.9, No.3, pp:706-732; https://doi.org/10.25255/jss.2020.9.3.706.732.

تجلّياتُ المكانِ في شِعرِ الحنينِ في إشبيليّة
قراءةٌ تحليليّةٌ دَلاليّة

حَظِيَ المكانُ في الشِّعر العربيّ عامّة وفي شِعر الأندلس خاصّة باهتمام كبير؛ لتحقيقه جوانبَ إنسانيّةً عظيمة. وعليه، فترنو هذه الدراسة إلى استظهار أثر المكان في شِعر الحنين في إشبيليّة كما صوّره عددٌ من شُعراء الأندلس، مثل ابنِ زيدون والمُعتَمِدِ بن عبّاد وغيرِهما، وتسعى إلى الكشف عن دَلالاته والانطباع الذي يتركه في وجدان الشاعر. ولتحقيق الدراسة أهدافَها المرجوّةَ فقد اتّكأت على منهج وصفيٍّ تحليليّ استقرأت به نماذجَ شعريّةً كان للمكان فيها حضورٌ جليٌّ، فضلاً عمّا أورده بعضُ الدارسين في جانب من جوانب هذا الموضوع، كما نظرت في أسلوبيّة الألفاظ المتداولة في وصف المكان وَدَلالات ذلك الاستخدام، وصولاً إلى استخلاصِها عددًا من النتائج الجديرة بالاهتمام.

الكلمات المفتاحيّة: تجلّيات، المكان، الحنين، شُعراء الأندلس، إشبيليّة.

تمهيد:

لم يكن المكانُ الأثيرُ ضربًا من التكلّس الوجوديّ دونما إحداثِ تفاعلات وجدانيّة تتدفّق بلا وعي نحوَ تشكيل علاقات استثنائيّة لا مَناصَ منَ اختزانها في دواخل النَّفس وانتشارها واقعًا مُسيطرًا على حياة روّاد ذلك المكان.

ويفرِضُ القدرُ على الإنسان مكانًا أو أمكنةً متغايرةَ الأثر في النّفس؛ فقد يؤدّي المكان دورًا حميميًّا ينتهي ببناء علاقة إنسانيّة يسعدُ بها صاحبُها كلّما تذكّره، وربّما يكون له وقعٌ مؤلم في نفس صاحبه يجعله يأنفُ كلَّ ما يتّصل به لِما فيه من لحظات مؤلمة، وسواءٌ أإيجابيًّا كان أثرُ المكان في النّفس أم سلبيًّا فلا يمكننا بحال من الأحوال إنكار أثره وأهميّته خاصّةً لِمن يفقد شيئًا مرتبطًا بهذا المكان، أو يفقد المكانَ عينَه.

إنّ طبيعة العلاقة القائمة بين المكان وَمُلازِمِهِ تبدو جليّةً حينما يقضي المكان بافتراقٍ قسريٍّ إمّا بموتٍ أو رحيلٍ أو نفي، عند ذلك ينطلق الحنينُ والشّوق مُندفعَيْن للتعبير عمّا تؤجِّجُهُ النّفس عبر لحظاتٍ شعوريّةٍ ترنو إلى الصِّدق نحوَ هذا المكان الذي قد يتحوّل بعد هذا الفراق فيصبح أثرًا بعد عين.

والمُتأمّل أثرَ المكان في النّفس الإنسانيّة، من حيثُ دورُهُ في تأجيج مشاعر الحنين وَتَوَقان النّفس إليه، تتكشّف له لوحاتٌ تشكيليّةٌ خلّابةٌ أدّى المكانُ فيها دورَ البطل؛ ففي (سَقط اللّوى، والدَّخول، وَحَوْمَل) تشكّلت لوحةٌ إبداعيّةٌ بين الشاعر ومحبوبته؛ إذ جمَعَهُما المكانُ وألّفَ بينهما، فكوّنا علاقةً إنسانيّةً سمعت بها أصقاع الأرض، ثمّ بعد ذلك افترقا من هذا المكان، الذي كان مولدَ

لقاءٍ واقتراب ثمّ أمسى مُنتهى بُعْدٍ واغتراب. وعليه، فقد برزت تجلّيات المكان في شِعر امرئ القيس كاشفةً أثرًا واضحًا لفضل ذلك المكان في إنشاء علاقة حميميّةٍ صادقة[1].

وَمَنْ يتتبّع النصَّ الشِّعريَّ القديم يلحظ بجلاء الشاعرَ العربيَّ مرتبطًا على نحوٍ كبير بالمكان الذي وُلد فيه وعاش في جنباته، حتى إنه يتغنّى به في شِعره وإن ابتعد عنه جغرافيًّا؛ إذ هو قريبٌ منه نفسيًّا وروحيًّا. ولعلّ حديث الشاعر الجاهليّ عنه في المقدّمة الطلليّة يشير إلى تقلّب الحياة، فهو حديثٌ عن "بقايا الأشياء التي ما تزال تحتفظ بالماضي، وليس الشاعرُ سوى بقيّة شيء أتى عليه البُعدُ والهجر والفراق مثلما أتى المطرُ والرياح والزمن على معالم المكان"[2]. وعليه، فتكاد اللحظة الطلليّة أن تكون من أهمّ العناصر التي تتكوّن منها القصيدة الجاهليّة؛ لأنها تكشف عن علاقة قويّة بين الإنسان والمكان، ولكن ليس المكانُ الذي كان وإنّما المكان في حالته الراهنة وبما طرأ عليه من تحوّل وخراب"[1].

وها هو المكان يظهر أثرُهُ جليًّا حين وقف رسولُنا محمّد _ صلّى الله عليه وسلّم_ على مشارف مكّةَ المكرّمةَ مودِّعًا مسقط رأسه وموطن آبائه وأجداده، وفوق كلّ ذلك مهدَ دعوته ورسالته؛ إذ يقول بعد رحيله عنها: "واللهِ إنّك لخيرُ أرض الله، وأحبُّ أرض اللهِ إلى الله، ولولا أنّي أُخرِجتُ منك ما خرجت"[2]. حقًّا إنّه أعظمُ حنين! ولعلّ مُتَصَفِّح رسالة أبي عثمانَ عمرو بحر الجاحظ، الموسومةِ بِ "الحنين إلى الأوطان"، يجد أقوالَ حكماء العرب والعجم وأدبائهم في حُبّ الأوطان والتعلّق بها مبثوثةً فيها[3].

بناءً على ما سَلَف، فإنّ للمكان حضورًا واضحًا وَجَلِيًّا في الأدب العربيّ القديم، ولا سيّما الشِّعر؛ ففي الوقت الذي قسّم مُؤرّخو الأدب المُحدَثونَ الشِّعرَ حَسَبَ عُصوره تقسيماتٍ سياسيّةً وزمانيّةً[4] نجد القدماء يقسّمونه مكانيًّا، فيقولونَ شعراءُ حمص والمدينة ومكّة و...[5].

---

[1] للمزيد مِنَ الحديث عن أهميّة المكان وتوظيف الشُّعراء له منذ القديم على نحوٍ لافت، وتأكيدًا لمقولة "الشِّعر ديوان العرب"، انظر: النويهي، محمّد، **ثقافة الناقد الأدبيّ**، مكتبة الخانجي، ط2، القاهرة، 1969، ص237.

[2] المنصوري، جريدي سليم، **شاعريّة المكان**، مطابع شركة دار العلم للطباعة والنشر، جدّة، 1992، ص96.

[1] رابعة، موسى، **تشكيل الخطاب الشِّعريّ**: دراسات في الشِّعر الجاهليّ، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعيّة، الأردن، 2000، ص11؛ وانظر: ضيف، شوقي، **تاريخ الأدب العربيّ (العصر الجاهليّ)**، القاهرة، دار المعارف، ص212.

[2] الأزرقي، أبو الوليد محمّد بن عبدالله بن أحمد، (ت 250هـ)، **أخبار مكّةَ وما جاء فيها مِنَ الآثار**، تحقيق عبدالملك عبدالله دهيش، ط1، مكتبة الأسدي، (د.م)، ص203.

[3] انظر: أبو عثمان، عمرو بن بحر الجاحظ، (ت 255هـ)، **رسائل الجاحظ**، تحقيق محمّد باسل عيون السُّود، دار إحياء التراث العربيّ، ج2، ط3، بيروت، 1969، ص283–306.

[4] انظر، مثلًا: ضيف، شوقي، **سلسلة تاريخ الأدب العربيّ**، التي تشمل العصرَ الجاهليَّ والعصرَ الإسلاميَّ والعصرَ العباسيَّ الأوّلَ والعصرَ العباسيَّ الثاني.

وإذا ما أراد الباحث تجلية دَلالة مصطلح المكان لجأ إلى أحد معاجم اللُّغة فتبيّن له أنّ جذره اللغّويّ هو (ك ، و ، ن)[6] على وزن "مَفْعَل"، وهو بهذه الصيغة _صيغة اسم المكان_ يعني "مَوْضِعَ الشّيء؛ أي المحلّ الذي يحلّ فيه ويتموضع، والفضاء الذي يحيط به، ويحدّد موقعه بالقياس إلى شيء آخر"[1].

أمّا المكانُ اصطلاحيًّا فنشأ معَ الفلسفة اليونانيّة؛ إذ قيلَ إنه "ما يحلُّ فيه الشيءُ أو ما يحوي ذلكَ الشيء ويميّزه ويفصله عن باقي الأشياء"[2]. وَيُعَدُّ أفلاطون أوّلَ مَنْ عَرَّفَ المكانَ اصطلاحيًّا، فَجَعَلَهُ "حاويًا للأشياء"[3]. أمّا هندسيًّا، فَيُعَرَّفُ المكانُ بأنه "وسطٌ غيرُ مُحَدَّدٌ يشتملُ على الأشياء، وهو مُتَّصِلٌ مُتجانس لا تمييزَ بينَ أجزائه وذو أبعاد ثلاثة، هي: الطول، والعرض، والارتفاع"[4]. وَبِذا، يكون المكانُ "مساحةً ذات أبعاد هندسيّة أو طبوغرافيّة تحكمُها المقاييسُ والحُجوم، ويتكوّن من موادَّ غيرِ محدّدة بخصائصها الفيزيقيّة حَسْبُ، بل هو نظامٌ بينَ العلاقات المُجَرَّدة يُسْتَخْرَجُ مِنَ الأشياء الملموسة بِقَدْرِ ما يُسْتَمَدُّ مِنَ التجريد الذهنيّ"[5].

---

[5] انظر: الجمحيّ، محمّد بن سلّام (ت 231هـ)، **طبقات فحول الشُّعراء**، شرحه محمود محمّد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، 1980، ص215.

[6] تتأرجح معاجم اللُّغة العربيّة في اشتقاق المكان من الجذرين (كون) و(مكن)، بيدَ أنّ الرأي الرّاجح هو اشتقاقه من (كون)، جاء في اللّسان: (مكان في أصل تقدير الفعل مفْعَل؛ لأنّه موضع لكينونة الشّيء فيه، غير أنّه لَمّا كثر أجروه في التّصريف مجرى فعال...، قال ثعلب: يبطل أن يكون مكان فعال لأنّ العرب تقول: كُن مكانك، وقم مكانك، واقعد مقعدك، فقد دلّ هذا على أنه مصدر من كان، أو موضع منه) انظر: أبو الفضل، محمّد بن مكرم بن منظور، (ت 711هـ)، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، (د.ط)، (د.ت)، مادّة (مكن)، وجاء في مقاييس اللُّغة لابن فارس: الكاف والواو والنون أصلٌ يدلّ على الإخبار عن حدوث شيء، إمّا في زمان ماضٍ أو مكان راهن، يقولون: كان الشيء يكون كونًا، إذا وقع وحضر...، وقال قوم: المكان اشتقاقه من كان يكون، فلمّا تُوهمت الميم أصليّة فقيل تمكين، كما قالوا في المسكين تمسكن) انظر: أبو الحسين، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، (ت 395هـ)، **مقاييس اللُّغة**، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، (د.ط)، 1979، مادّة (كون).

[1] حسين، خالد حسين، **شِعريّة المكان في الرواية الجديدة**، كتاب الرياض، العدد: 83، أكتوبر2000م، مؤسسة اليمامة الصحفيّة، الرياض، ص62.

[2] العبيدي، حسن مجيد، **نظريّة المكان في فلسفة ابن سينا**، دار الشؤون الثقافيّة العامّة، ط1، بغداد، 1987، ص18.

[3] انظر: بدوي، عبدالرّحمن، **مدخل جديد إلى الفلسفة**، وكالة المطبوعات، ط1، الكويت، 1975، ص186.

[4] مجمع اللُّغة العربيّة، **المعجم الفلسفيّ**، الهيئة العامّة لشؤون المطابع الأميريّة، القاهرة، 1983، ص191.

[5] عثمان، اعتدال، **جماليات المكان**، مجلّة الأقلام، بغداد، العدد 2، 1986، ص76.

وللمكان دورٌ مهمٌّ وكبيرٌ في عمليّة الإبداع؛ لأنه لا بُدَّ للنصّ الأدبيّ من وعاء يحتضنُ أحداثَه[6]، وهو –أي المكان– محورٌ رئيس من محاور نظريّة الأدب وعنصر ضروريّ من عناصر العمل الأدبيّ يُضفي عليه بُعدًا جماليًّا؛ لِذا أجمع دارسو الأدب على أهميّته، وتوقفوا عند دَلالاته الكثيرة وأبعاده المتنوّعة وجمالياته المختلفة، وهو –فضلًا عمّا سَلَف– "يثير دونَ سِواهُ إحساسًا بالمواطنة وإحساسًا آخَرَ بالزمن وبالمحليّة، حتى لَنَحسبه الكيانَ الذي لا يحدث شيء بدونه"[7].

وللمكان الأدبيّ بنيتان تتفاعلان معًا في آن؛ أولاهُما بَصَريّةٌ محسوسة، وثانيتُهما مُتَخَيَّلَةٌ تحوّلُ المرئياتِ إلى أنساق عاطفيّة ووجدانيّة كبرى[8]. وعليه، فيكتسب المكانُ جماليَّتَهُ في النصّ الأدبيّ من مُخَيّلَةِ الأديب ومشاعره التي يَبُثُّها تجاهَه.

ويختلفُ المكانُ الواقعيُّ عن المكان الأدبيّ، فهو في الواقع "كيانٌ ماديٌّ مجرَّد، بينما هو في الأدب عنصرٌ فنّيٌّ مُكتَنِزٌ بالقيم والأفكار يحاكي صورَ الأشياء بالمعنى أو الرمز والدَّلالة في إطار تركيب مجازيّ"[9]؛ وَبِذا فإنّ حضور المكان "في التجربة الإبداعيّة يفقدُهُ بعضًا من خصوصيّته الواقعيّة ويزوّدُهُ بجملة مِنَ الخصائص المجازيّة، التي ترتكزُ أساسًا على ذاتيّة الأديب وتتغذّى من فضاء تجرِبته المعيشة وَمُناخ الإحساس الذي ينتابُهُ ويصاحبُهُ أينما حَلَّ وارتحل"[1].

ولأهميّة المكان فقد اعتنت به الدراساتُ الحديثة، وَيُعَدُّ الناقد الفرنسيُّ جاستون باشلار أبرزَ مَنْ تناوله؛ إذ تحدّث عنه على نحوٍ مفصّل في كتابه الموسوم بِ "شعريّة المكان"، الصّادر عام 1957، الذي ترجمه غالب هلسا عن الإنجليزيّة عام 1980 وسمّاهُ "جماليات المكان"، وافتُتِحَت به سلسلةُ كتاب "الأقلام"، الصّادرة عن دار الشؤون الثقافيّة ببغداد[2]، وفيه حاول باشلار الانطلاق من رؤًى مُغايرةٍ للدراسات التقليديّة التي كانت تُحَدِّدُ مفاهيمَ المكان فلسفيًّا أو فيزيائيًّا، فقدّم تصوُّراتٍ جديدةً كانت منطلقًا مهمًّا لدراسة المكان من منظور فنّيٍّ مميَّز، مركّزًا على العلاقة الحميميّة بينَ الإنسان والمكان وكيف تتجلّى في أحلامه وتظلُّ تؤثّرُ فيه في كلِّ مراحل حياته؛ فهو

---

[6] انظر: النصير، ياسين، **إشكاليّة المكان في النصّ الأدبيّ: دراسات نقديّة**، دار الشؤون الثقافيّة العامّة، ط1، بغداد، 1986، ص151.

[7] المرجع نفسه، ص5.

[8] سوار، محمّد وحيد الدين، **النسيبيّة والشّعر في الزمان والمكان**، الجمعيّة التعاونيّة للطباعة، دمشق، 2003، ص18.

[9] مطلك، حيدر لازم، **الزمان والمكان في شِعر أبي الطيّب المتنبّي**، دار صنعاء، ط1، عمّان، 2010، ص155.

[1] فوغالي، باديس، **الزمان والمكان في الشّعر الجاهليّ**، جدارا للكتاب العالميّ، عالم الكتب الحديث، ط1، عمّان، 2008، ص181.

[2] أبو هيف، عبدالله، **جماليات المكان في النقد العربيّ المعاصر**، مجلّة جامعة تشرين، سلسلة الآداب والعلوم الإنسانيّة، المجلّد 27، العدد1، 2005، ص121.

بيتُ طفولته وعالمُهُ الأوّل، وَحَسَبَ قوله فإنّ "الأماكنَ التي مارسنا فيها أحلامَ اليقظة تُعيدُ تكوينَ نفسِها في حلم يقظة جديد، وهي بذلك تعيشُ مَعَنا طَوالَ الحياة"[3].

وتتّسم العلاقة الكائنة بين الإنسان والمكان بالالتصاق والتّلازم بين الحدّين أكثرَ من الزّمان؛ وذلك لأنّ المكان يُدرك إدراكًا مباشرًا؛ أي أنّه قابلٌ للقبض عليه والإمساك به، فالإنسان بوصفه الكائنَ الأكثرَ وعيًا بالمكان يمتلك (حاسّةً مكانيّة) تُتيح له القدرة على انتظام المكان بالإقامة فيه في المرحلة الأُولى، ثمّ تشعيره ودمجه في اللُّغات الجماليّة: أدب، مسرح، فنّ تشكيليّ،...، في مرحلة ثانية؛ ولهذا لا يبدو المكانُ على علاقة وثيقة بالإنسان حَسْبُ، وإنّما يشكّلان كائنًا واحدًا: "قلْ لي أينَ تحيا أقُلْ لكَ مَنْ أنت"، فكلٌّ منهما يدلّ على الآخر[4].

ولأنّ المكان جزءٌ من البيئة الحياتيّة كان له أثرٌ في تأجيج مشاعر الحنين والشوق إلى جغرافيّته البديعة التي ما انفكّت تصنعُ بطولاتٍ وملاحمَ بل ولوحاتٍ غراميّةً أحيانًا أو خساراتٍ عاطفيّةً أحيانًا أُخرى.

وقد حضر المكان في نِتاجات الشُّعراء الأندلسيين على نحوٍ واضح وجليّ، حتى إنّ المُطّلع عليه يجدهُ متنوّع الأشكال متباينَ الأنماط متعدّد الصُّور مختلف الأساليب. وعليه، فإنّ أهميّة الوقوف على تجلّيات المكان في شِعر الحنين في إشبيليّة تنبع من وفرة حاضرة لدى كثير من الشُّعراء حولَ المكان وآثاره في حيواتهم، ويبدو هذا من خلال شِعرهم الذي يستحقُّ الدرسَ والنَّظرَ لاستنطاق هذا الحشد من الأمكنة ومحاولة استدعاء أسرارها وما صنعته في أبنائها من هَيام وعشق وحنين.

ولمّا كانت الحياة السياسيّة فاعلةً في تشكيل الحيوات الأُخرى، ومنها الثقافيّة، وكان مشهدُ الأندلسِ السياسيُّ مُؤثّرًا في مشهدها الثقافيّ، حتى إنهما لا ينفصلان، فستقف الدراسة عليهما مبتدئةً بالمشهد السياسيّ، الذي ستتناوله على نحوٍ موجز، ثمّ تُعَرِّج على المشهد الثقافيّ، الذي هو عمادُ هذه الدراسة وقوامُها.

أوّلاً _ المشهد السياسيّ:

سقطت الأندلس في وادٍ سحيقٍ يدعو إلى الأسى والحُرقة، وأخذ الاضطراب والقلق منها كلَّ مأخذ. وبعد سقوط الخلافة تقسّمت الأندلس وتقطعت إلى أشلاءٍ هنا وهناك، وبدأ عصر الطوائف بسقوط الدولة العامريّة في قرطبة، وانتهى بدخول المُرابطين وسيطرتهم على الأمور، وعلى الرّغم

[3] باشلار، جاستون، **جماليات المكان**، ترجمة غالب هلسا، وزارة الثقافة والإعلام، دار الجاحظ للنشر، بغداد، ط1، 1980، ص45.

[4] المرجع نفسه، ص63.

من هذه النهاية لم يكن الأمر هيّنًا على أهل الأندلس، بل كان "ضربةً لم تنهض الأندلس من آثارها قَطّ، وكان بداية عهد الانحلال الطويل الذي لبثت تتقلّب فيه بعد ذلك زَهاء أربعة قرون أُخرى، وعلى الرّغم من أنّ عهد الطوائف لم يَطُلْ أكثرَ من سبعين عامًا... فإنّ الأندلس لم تستطع أن تستردّ وحدتها الإقليميّة القديمة ولا تماسكها القديم قَطّ".[1]

وقد ازداد تشظّي الدولة الإسلاميّة في عهد الطوائف حتى بلغت الولاياتُ التي أخذت تتنافس في ما بينها نحوَ ستّ عشرة ولايةً، وما زالت كذلك إلى أن نالت السيادة، وحازت دولة بني عبّاد الرّيادة في عهد المُعتَضِد وابنه، ثمّ نكصت ثانيةً، ولم تستطع هذه الدولة الفتيّة أن توقف أطماع ألفونسو السادس عند حدٍّ، فكان ما كان من استدعاء المُرابطين ودخولهم[2]. وفي ما يأتي ستقتصِرُ الدراسة حديثها على حاضرة إشبيليّة وحكّامها بني عبّاد؛ فقد كانت أزهرَ الحواضر آنذاك.

إشبيليّة وبنو عبّاد:

وصفها ياقوت الحمويُّ بأنها: "مدينةٌ كبيرةٌ عظيمة وليس بالأندلس اليوم _عصر ياقوت_ أعظمُ منها، تسمّى (حمص)، وبها قاعدة ملك الأندلس وسريره، وبها كان بنو عبّاد ولمقامهم بها خربت قرطبة"[3].

وقد نشأت دولة بني عبّاد وظهر نجمُها في أُفْق الأندلس بُعَيْدَ زوال الخلافة على يد قاضيها أبي الوليد إسماعيل بن عبّاد؛ إذ أقام على خطّة القضاء والأمانة بإشبيليّة[1]. وَعُرِف أبناءُ هذه الأُسرة بتولّيهم مناصبَ كثيرةً في أثناء حكم المُستنصر وابنه هشام المؤيّد والمنصور بن أبي عامر، وكان جَدُّهم قد تولّى الشّرطة وخطّة الأمانة والخطابة بالجامع الأعظم. وقد استمرّ حكم هذه الأُسرة لإشبيليّة سبعين عامًا تتابع عليها ثلاثةٌ من أفرادها، هم: القاضي محمّد بن إسماعيل بن عبّاد (414 – 433هـ)، وعبّاد بن محمّد المُعتَضِد (433 – 461هـ)، ومحمّد بن عبّاد المُعتَمِد (461 – 484هـ). ويبدو أنّ آخرَ هذه السلسة قد تمّ بتولّي المُعتَمِد الخلافة، الذي كان مُسرفًا في ترفه وذهب في الشِّعر كلَّ مذهب، ممّا أضعف شوكتَهُ أمامَ كيد أعدائه في إسبانيا النّصرانيّة، وهو الذي

---

[1] عنان، محمّد عبدالله، **دول الطوائف**، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط1، 1960، ص16.

[2] المرجع نفسه، ص431.

[3] أبو عبد الله، ياقوت بن عبد الله الحموي (ت 626هـ): **معجم البلدان**، ج1، طبعة دار صادر، بيروت، (د.ط)، 1955–1957، ص195.

[1] أبو العبّاس، أحمد بن محمّد بن عذاري المراكشي، (ت 695هـ)، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، ج3، ص194، نقلاً عن أبي بكر، محمّد بن عيسى ابن اللبّانة الدّانيّ الأندلسيّ، (ت 507هـ)، **الديوان**، تحقيق منجد مصطفى بهجت، مركز البحوث الإسلاميّة العالميّة بماليزيا، ط1، 2001م، ص15.

استدعى المرابطين بعد أن أحدق الخطرُ به وبالولايات المجاورة. وبدخول يوسف بن تاشفين انتهى عصرُ الطوائف، وسقطت دولة بني عبّاد، وَأُخِذَ المُعتَمِدُ أسيرًا إلى أغمات.[2]

ثانيًا _ المشهد الثقافيّ:

الأندلس، ذلك (الفردوس المفقود)، اسمٌ مصحوبٌ بالرّنين المُسْتَحَبّ والجِرس المُطرب، اقترنت صورته في أذهان الباحثين بجمال الطبيعة، وروعة الحضارة، وألحان الشِّعر من عيونها المتدفّقة، التي تغلب عليها، كما يقول ابن حوقل: "المياه الجارية والشّجر والثمر والرّخص والسَّعة في الأحوال".[3]

وقد حفلت الأندلس _زمن ملوك الطوائف_ بأعلامٍ من الشُّعراء الكبار، من مثل: ابن حزم، وابن درّاج، وابن زيدون، وابن حمديس، وابن عمّار، والمُعتَمِد بن عبّاد، وابن خَفاجة، وأبي إسحق الألبيري. وفي إشبيليّة تحديدًا تجمّع خلقٌ كثير من الشُّعراء، وغصّت بهم المنتديات، وكانت مجالس الحكّام مَعَهم، وقد حفل كُتّاب البدائه بحكاياتهم وبديهتهم في قول الشِّعر؛ إذ ذكر القزوينيّ في حديثه عن (شِلْب) التابعة لإشبيليّة "وَقَلَّ أن ترى بمدينة شِلب من أهلها من لا يقولُ شِعرًا ولا يعاينُ أدبًا، ولو مَرَرْتَ بالفلّاح خلفَ فدّانه وسألته عن الشِّعر لقَرَضَ من ساعته ما اقترحتَ عليه، وأيَّ معنًى طلبتَ منه".[4]

ولذلك يمكننا أن نَعُدَّ الشِّعر في هذا العصر مساندًا تاريخيًّا مهمًّا يعكس لنا صورة الحالة الفكريّة، والاجتماعيّة، والسياسيّة، والثقافيّة.

المكان في شعر الحنين في إشبيليّة زمن ملوك الطّوائف:

تجلّى حضور المكان في شعر الحنين في إشبيليّة في صورٍ عدّة: فكان الوطن الأُمّ (إشبيليّة، قرطبة،...) مكانًا جليًّا في شعرهم بوصفه مكانًا عامًّا، وكان القصر أحيانًا، والبيت، والمتنزّهات، و...، تأخذ مكانها الخاصّ في نفوس الشُّعراء، وتجلّت أماكنُ العشق والهوى ومجالسُ اللّهو والخمر فنالت نصيبًا من شِعرهم، ولم يكن المكان المحزن بمنأًى عن الحُضور حين يُؤَجِّجُ

---

[2] أبو العبّاس، أحمد بن محمّد بن إبراهيم بن خلّكان (ت681هـ): **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق: إحسان عبّاس، طبعة دار الثقافة، بيروت، (د.ط)، (د.ت)،ج5، ص23–24.

[3] عبد العظيم، علي، **ابن زيدون: عصره وحياته وأدبه**، طبعة مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة، (د.ط)، 1955، ص14.

[4] الحموي، ياقوت، **معجم البلدان**، ج3، ص357.

مكانٌ قضى فيه عزيزٌ مشاعرَ الحنين والشّوق لا إلى ذلك المكان مجرّدًا بل إلى مَنْ ألقى عصا التَّرحال فيه.

وَلّما كان لِتَنَوّع الأمكنة في النُّصوص الشّعريّة أثرٌ في دَلالاتها؛ إذ إنّ لكلّ مكان موصوف ألفاظًا مخصوصة تناسبُهُ من جهة وتناسبُ الانثيالَ العاطفيَّ والدَّفْقَ الشُّعوريَّ من جهة أُخرى، فقد جعلَ ذلك شِعرَ الحنين الإشبيليَّ مرآةً يرى فيها المُتَلقي صورًا مكانيّة حيّة يُفَسِّرُ رُموزَها بالقراءة المُتَأنِّية الفاحصة.

والمدينةُ/ الوطنُ مكانٌ رَحْبٌ يتأثّرُ به الإنسانُ ويؤثّرُ فيه، وهي محلُّ ذكرياته وموطنُ أفراحه وأحزانه؛ لِذا ارتبط بها جسديًّا وروحيًّا. ولأهميّتها، فقد حاكَ الشُّعراء نسيجًا لُغويًّا ثريًّا بأفكاره غنيًّا بألفاظه، مشكّلينَ قوالبَ شِعريّةً متعدّدةَ الدَّلالات. والمتأمّلُ في شِعر الحنين خاصّةً عند شُعراءِ إشبيليّةَ يستلهم دَلالات المكان وجمالياته؛ فالوطن يحضر بعمومه وبوصفه مسقط الرأس ومهوى الفؤاد، ففي شِعر ابن زيدون (ت 463هـ) مثلاً نجد الوطن جليًّا؛ لكنّه وطنٌ جامدٌ غير حيٍّ، يحنُّ إلى قرطبةَ وطنِهِ الأُمّ، إلى الحضن الدّافئ الذي نَعِمَ فيه بكلّ سرور وبهجة منذ الطفولة، وحتى عنفوان الشّباب؛ يقول في إحدى موشّحاته[1]:

بِقُرْطُبَةَ الغرّاءِ، دارِ الأكارِمِ

بلادٌ بها شَقَّ الشَّبابُ تمائِمي

وأنْجَبَني قَوْمٌ، هُناكَ، كِرامُ

ويذكر ابنُ زيدون في موضعٍ آخرَ قرطبةَ، وأيّام صِباه[2]:

تَنَشَّقَ، مِنْ عَرْفِ الصَّبا، ما تَنَشَّقا

وعاودَهُ ذِكرُ الصِّبا فتشوَّقا

وما زالَ لَمعُ البرقِ، لمّا تألَّقا

يُهيبُ بدمعِ العينِ حتّى تدفَّقا

ولا يكتفي ابنُ زيدون بذكر قرطبة عامّة دون ذكر مناطقها المختلفة، ومجالسها المتنوّعة مجالسِ الأُنس والمرحِ، ومجالس الشّرب، فيذكر أماكنَ كثيرةً من مثل القصر، نحو قوله[1]:

---

[1] أبو الوليد، أحمد بن عبد الله بن أحمد بن زيدون المخزوميّ الأندلسيّ، (ت 463هـ)، **الديوان**، شرح وتحقيق: كرم البستاني، دار صادر، بيروت، (د.ط)، 1975م، ص30.

[2] ابن زيدون، **الديوان**، ص37.

[1] ابن زيدون، **الديوان**، ص30.

سقى جَنَباتِ القَصْرِ صَوْبُ الغَمائمِ

وغنّى على الأغصانِ، وُرْقُ الحَمائِمِ

ومجلس اللهو والسَّمَر في مواقعَ مختلفةٍ؛ مثل قوله[2]:

ويومٍ لدى النُّبْتيِّ في شاطئِ النّهْرِ

تُدارُ علينا الرّاحُ في فِتيةٍ زُهْرِ

وليسَ لنا فَرْشٌ سِوى يانِعِ الزَّهْرِ

كما يذكر مواضعَ أُخرى؛ كالعقيق، والرّصافة، وغيرها من الأماكن التي غدا ذِكْرُها مصدر تأجيجٍ لمشاعر الشّوقِ والحنين؛ إذ يبكي عهدَها الطّيب، ويحنّ إلى ساعات الصّفاء فيها، ولا يمتلك بعد فراقها إلاّ الدّعاء لها، والسّلام عليها ولو من بعيد، يقول[3]:

علـــى الثّغْـــبِ الشَّـــهديّ منّـــي تحيّـــةٌ	**زكَـــتْ، وعلـــى وادي العَقيـــقِ سَـــلامُ**
ولا زالَ نـــورٌ فـــي الرُّصـــافةِ ضـــاحِكٌ	**بأرجـــائها يبـــكي عليـــهِ غَمـــامُ**
معاهـــدُ لهـــوٍ لـــم تـــزلْ فـــي ظلالِهـــا	**تـــدارُ علينـــا للمـــجون مُـــدامُ**
تذكـــرّتُ أيّـــامي بـــها فتبـــادَرَتْ	**دُمـــوعٌ كـــما خـــانَ الفريـــدَ نِظـــامُ**
وصـــحبةُ قـــومٍ كالمصـــابيحِ كُـــلُّهُمْ	**إذا هَـــزَّ لـــلخطْبِ المُلِـــمِّ حُـــسامُ**
وأحـــورُ ســـاجي الطَّـــرفِ حَشْـــوُ جفونـــهِ	**سَـــقامٌ بَـــرى الأجســـامَ مـــنهُ سَـــقامُ**
يُديـــرُ علـــى رَغْـــم العِـــدا مِـــنْ ودادِهِ	**سُـــلافًا كـــأنّ المِسْـــكَ منـــهُ خِتـــامُ**
فَمِـــنْ أجْـــلِهِ أدعـــو لِقُرْطُبَـــةَ المُنـــى	**بسُـــقيا ضـــعيفِ الطَّـــلّ وهـــوَ رِهـــامُ**
مَحَـــلٌّ عنيـــنا بالـــتّصابي خِلالَـــهُ	**فأسْعَدَنـــا والـــحادثاتُ نِـــيامُ**

بمشاعر ابن زيدون على نحوٍ تدريجيّ حتى تتمكّن منه فتمارسَ عليه ضغطًا نفسيًّا يحرّك فيه جوانبَ الأسى، فتنهمر دموعُهُ وتكثر آهاتُهُ ويغدو سقيمَ الجسم.

وَيُلحظ في ما سَلَفَ أنّ ألفاظ ابنِ زيدون وتراكيبه تآزرتا معًا في إنتاج نصّ تنبعث منه رائحة المكان، ويطفو على سطحه بوحٌ عاطفيّ ينتقل من فضاء النصّ إلى فضاء أوسعَ بِمُكْنَتِهِ أن يمارس فيه فعلَ الحياة. ويبدو المكان الحاضرُ في شِعر ابن زيدون هو الوطن الغائبُ أو البعيدُ عن النّظر، فهو لا يتعدّى باب الذّكريات التي تعود إلى الذهن إمّا كنوعٍ من التّأميل بعودتها أو

[2] المصدر نفسه، ص31.

[3] المصدر نفسه، ص70–71.

رجوعها وإمّا كنوعٍ من إقناع النّفسِ وتشجيعها على الصّبر والتّحمّل. ولا يخفى علينا –في هذا السياق– أثر سجن ابن زيدون في الحؤول دون تمكّنه من رؤية أهله ودياره وفي التفريق بينه وبين ولّادةَ التي أَحَبَّ، ممّا جعل شِعرَهُ يكتسي طابعًا وجدانيًّا نفث فيه أحاسيسَه.

وعليه، فيمكننا نسج الجدول الآتي الذي تستبينُ فيه ألفاظ المكان ودلالته عند ابن زيدون:

اللفظ	صفاتٌ التَصَقَتْ بالمكان	دلالته
قُرْطُبَة	**الغرّاء، دارِ الأكارِم**	**الحنين إلى أيام شبابه وصباه: (بلادٌ بها شَقَّ الشَّبابُ تمائِمي)، (تَنَشَّقَ مِنْ عَرْفِ الصَّبا)** **الحنين إلى الأهل والاعتداد بهم: (وأَنْجَبَنِي قَوْمٌ، هُناكَ، كِرامُ)** **شدّة الحنين والحسرة: (يُهيبُ بدمعِ العينِ حتّى تدفَّقــا)** **الدعاء لها: (أدعو لِقُرْطُبَةَ)**
القَصْر، شاطئ النّهْر	**صَوْبُ الغَمائم**	**الحنين إلى مجالس الأُنس**
الأغصان **فَرْش**	**وُرْقُ الحَمائِم** **يانِع الزَّهْر**	**الحنين إلى الطبيعة**
الثّغَب الشّهديّ **العقيق**	 **نورٌ ضاحِك**	**تأجيج مشاعر الشّوقِ والحنين** **الحنين إلى صُحبة قومٍ**

الرّصافة		**كالمصابيح** **البكاء على عهدَها الطّيب** **الدّعاء لها، والسّلام عليها**

وها هو ذا ابنُ حمديس الصّقليّ (ت 527هـ) لم تكن الأقطار التي اختلف إليها لتنسيه وطنَهُ الأُمَّ –صقلية–، فيحنُّ إليها حنينًا يمزِّق الأحشاء، يقول[1]:

ألا فـــــي ضـــــمانِ اللهِ دارٌ بنـــــوطَسٍ ودرّتْ عليهـــــا مُعْصِـــــراتُ الهَواضِـــــبِ
أُمثّلُهـــــا فـــــي خـــــاطري كُـــــلَّ ساعـــــةٍ وأمـــــري لهـــــا قطْـــــرَ الـــــدّموع السّـــــواكِبِ
أحِـــــنُّ حنـــــينَ النّيـــــبِ للمـــــوطنِ الـــــذي مغـــــاني غوانيـــــهِ إليـــــهِ جَواذبـــــي
وقـــــدْ ســـــارَ عـــــن أرضٍ ثـــــوى قلْبُـــــهُ بهـــــا تمنّـــــى لـــــهُ بالجســـــم أوبَـــــةَ آيِـــــبِ

فالشاعرُ لا ينسى وطنه؛ إذ هو يحنُّ إليه في كلِّ حين، وهو يحضرُ في خاطره كلَّ ساعة، وهذا يجعله متأزّمًا نفسيًّا، حتى إنّ هذا التأزُّم يضفي بثقله على ذاته، فيهيج داخلُهُ حزنًا تترجمُهُ ألفاظُ النصّ وَدَلالاته، التي بثّت فيه –أي النصّ– حركة نجم عنها انفجارُ مشاعر الحزن، ممّا جعل دمعَهُ ينسكب.

ويزداد الحنين في نفسه حينما ينظر إلى حاله، وقد أمسى غريبًا عن وطنه بعيدًا عن معاهد صِباه، فيصدح[1]:

أحِـــــنُّ إلـــــى أرضـــــي التـــــي فـــــي تُرابهـــــا مفاصِـــــلُ مـــــِنْ أهلـــــي بَلـــــيْنَ وَأعْظُـــــمُ
كمـــــا حَـــــنَّ فـــــي قيـــــدِ الـــــدّجى بمُضِلَّـــــةٍ إلـــــى وطـــــنٍ عَـــــوْدٌ مِـــــنَ الشَّـــــوقِ يُـــــرْزِمُ

ولكنّ ابنَ حمديس الذي حثَّ أبناءَ وطنه على التّمسّك بوطنهم، وعدم تجرِبة الغربة؛ لأنّها سُمٌّ، يقول[2]:

وإيَّـــــاكَ يومًـــــا أنْ تُجـــــرِّبَ غُـــــربَةً فلـــــنْ يســـــتجيزَ العقـــــلُ تجرِبَـــــةَ السُّـــــمِّ

ونجده لا يقدر على العودة إلى الوطن؛ حيث صاحبَ المُعتَمِدَ فَرَضِيَ بإشبيليّة موطنًا له، فهو لن يعود إلى وطنه حتّى ولو لمدّةٍ من أجلِ إلقاء نظرةٍ على قبر أبيه[3]:

---

[1] أبو محمّد، عبد الجبّار بن محمّد بن حمديس الصّقليّ، (ت 527هـ)، **الديوان**، تحقيق: إحسان عباس، طبعة دار صادر، بيروت، (د.ط)، 1960م، ص33.

[1] ابن حمديس، **الديوان**، ص416.

[2] ابن حمديس، **الديوان**، ص417.

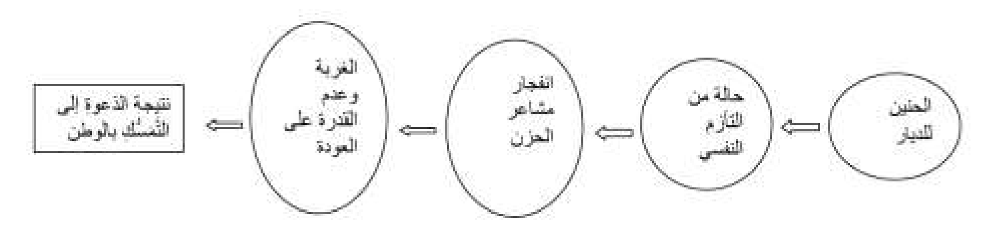
بـــدّلتُ مِـــنْ معشَـــري الأدْنـــين معشرَهـــا — لا فـــــرّقَ اللهُ فيمـــــا بيننـــــا أبَـــــدا

وكَـــمْ هَـــوى التّـــربَ دونـــي مِـــنْ ذوي رَحِمِـــي — ومـــــا مـــــقَلّْتُ لِبُعْـــدي مِـــــنْهُمُ أَحَـــدا

ولـــمْ يُسِـــرْنيَ مِـــنْ مَثْـــوَاكَ مَـــوْتُ أبـــي — وقَـــــدْ يُقلْقِـــلُ مَـــوْتُ الوالـــدِ الوَلَـــدا

ومـــا سَـــدَدْتَ سَـــبيلي عَـــنْ لِقائِهِـــمُ — لكِـــنْ جَعَلْـــت صِـــفادي عَـــنْهُمُ الصَّـــفَدا

وبهذا المستوى التركيبيّ عند ابن حميدس تشكّلت مقطوعاته الشِّعريّة الخاصة بالمكان والحنين إلية وَفق الآتي:



ومن جهةٍ أُخرى يظهر شاعرٌ آخرُ ينتمي إلى صقلية، لكنه يختلف عن ابن حمديس في نّه يرضى الغربة وطنًا له، ويطمئنّ إلى المُعتَمِد، ويُعجَبُ بالعطايا الكثيرة، فها هو ذا أبو العرب الصّقليّ (ت 492هـ) يوجّه خطابًا إلى نفسه يوضّح لها فيه طريق المجد، ويحثّها على عدم الذلّ والهوان[1]:

إلامَ اتّبـــــاعي للأمـــــــاني الكـــــــواذبِ — وهـــذا طريـــقُ المجـــدِ بـــادي المَـــذاهِبِ

أَهُـــمُّ ولـــي عزمـــانِ: عـــزمٌ مُـــشَرِّقٌ — وآخَـــرُ يُغـــري همّتـــي بالمَضـــارِبِ

ولا بُـــدَّ لـــي أن أســـألَ العـــيسَ حاجَـــةً — تَشُـــقُّ علـــى أخفافِهـــا والغَـــوارِبِ

فيـــا نفـــسُ لا تَسْتَصْـــحبي الهـــونَ إنَّـــهُ — وإنْ خَـــدَعَتْ أســـبابُهُ شَـــرُّ صـــاحِبِ

ويـــا وطنـــي وإن بِنْـــتَ عنّـــي فـــإنّني — سَـــأُوْطَنُ أكـــوارَ العِتـــاقِ النَّجـــائِبِ

إذا كـــانَ أصـــلي مِـــنْ تُـــرابٍ فَكُلُّـــها — بـــلادي وَكُـــلُّ العَـــالَمِينَ أقارِبـــي

---

[3] المصدر نفسه، ص171.

[1] أبو عبد الله، عماد الدين محمّد بن محمّد الأصفهانيّ، (597هـ)، **خريدة القصر وجريدة العصر**، تحقيق: محمّد المرزوقي وآخرين، الدار التونسيّة للنشر، تونس، (د.ط)، ج2، 1973، ص222_223؛ وانظر: أبو عبد الله، محمّد بن شاكر الكُتُبِيّ، (ت 764هـ)، **فوات الوفيات**، تحقيق علي محمّد معوّض وعادل أحمد عبد الموجود، ج2، دار الكتب العلميّة، بيروت (د.ت)، ص515.

وقد خَلَفَ الرّعيلان الأول والثّاني من المسلمين خَلَفٌ أحبّوا الأندلس، وَفُتنوا بطبيعتها الجميلة، فاتّخذوها وطنًا، ورسخت محبّتها في نفوسهم، فكانوا إن ابتعدوا عنها حنّوا إليها، وإن طالت غيبتهم عنها هاج شوقُهم إليها، ومن ذلك قول أبي الحسن ابن حصن الإشبيليّ (ت 449هـ)؛ إذ خرج إلى وادي قرطبة فتذكّر إشبيليّةَ فقال[2]:

**ذكرْتُـــــكِ حِمْـــــصُ بـــــذكرى هَـــــوى		أمـــــــاتَ الحَســـــــودَ وتعنـــــــيتَهْ**

**كأنّـــــكِ والشّـــــمسُ عنـــــد الغُـــــروبِ		عـــــروسٌ مِـــــنَ الحُسْـــــنِ منحـــــوتَهْ**

غـــــدا النّهـــــرُ عِقْـــــدَكِ والطّـــــوْدُ تاجَـــــكَ، والشّـــــمسُ أعـــــلاهُ ياقوتَـــــهْ

لقد برزت جماليات المكان في ما ذكرَه ابنُ حصن؛ إذ استعان بفنون القول البلاغيّة فجاءت تشبيهاته جميلة تدلّ على فتنته وإعجابه بجمالها ومحاسنها، ولعلّ هذا الذي ميّز ابنَ حصن عن غيره من الشّعراء الذين جاءت أشعارهم _كما مرّ بنا_ خالية من المحسّنات البديعيّة؛ لأنّ همّ الشّاعر هو أن يعبّر عن شوقه وحنينه لبلده تعبيرًا صادقًا مؤثِّرًا بعيدًا عن تلك المحسّنات والصّور الجماليّة.

وأنشد أبو المعالي إدريس بنُ يحيى الأشبيليُّ (ت نحوَ منتصف القرن السادس الهجري)، الواعظُ بمسجد رحبة القاضي من بلنسيّةَ، أبياتًا يتشوّق فيها إلى إشبيليّة؛ منها[1]:

**أنـــــا فـــــي الغُربـــــةِ أبكـــــي		مـــــا بَكَـــــتْ عـــــينُ غَريـــــبِ**

**لـــــم أكُـــــنْ يـــــومَ خُروجـــــي		مِـــــنْ بـــــلادي بِمُصـــــيبِ**

**عجبًـــــا لـــــي وَلِتَركـــــي		وَطَنًـــــا فيـــــهِ حَبيبـــــي**

فغربة الشّاعر عن وطنه لم تستدعِ إلاّ ألفاظًا سهلةً ومعانيَ واضحةً لا غموضَ فيها، ومع هذا جاءت أبياته مؤثّرة في النّفس، فهو يبكي في الغربة، ويرى أنّه كان مخطئًا عندما ترك وطنه وابتعد عنه، فعجبًا لمن يتركُ وطنه –أعظم مكان في الوجود– وفيه أحبّاؤه!

وللتنافس على السُّلطة والتسلّط أثرٌ في إنتاج نماذجَ مكانيّةٍ نجدها ماثلة في السجن، الذي شكّلَ محلًّا للمعارضة السياسيّة، ممّا دفع الشُّعراء إلى الوقوف فيه على تجاربهم الشخصيّة،

---

[2] أبو العباس، أحمد بن محمّد المقّريّ التلمسانيّ، (ت1041هـ)، **نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب**، تحقيق: إحسان عبّاس، طبعة دار صادر، بيروت، ج4، (د.ط)، 1968م، ص234.

[1] أبو عبدالله، محمّد بن عبدالله بن الأبّار القُضاعيّ البلنسيّ، (ت 658هـ)، **التكملة لكتاب الصِّلة**، تحقيق عبد السلام الهرّاس، ج1، طبعة القاهرة، 1955، ص196؛ وانظر: المقّري: نفح الطيب، ج5، ص257.

عاكسينَ سُلطَتَهُ على ألفاظهم وأفكارهم وصورهم ومقارباتهم بُغْيَةَ خلق زاوية نظر توسِّعُ أُفْقَ تجربتهم وتحققُ لذاتهم حضورَها خارجَ حدود المكان.

ولمّا لم يخلُ العصرُ الأندلسيُّ مِنَ الفتن والحروب والصّراعات والنزاعات، سواءٌ أداخليّةً كانت أم خارجيّة، وكان الشِّعر مرآة تعكس انفعالات الشاعر فإنّ الأسر يؤلمُه؛ لِذا يتّخذه وسيلة للتعبير عمّا يجيشُ في نفسه من قهر وانكسار، فيلجأ إلى تذكّر ماضيه بِوَصْفِهِ معادلًا نفسيًّا لعلّه يخفّف وطأة مصابه، فيمارس في سجنه نشاطًا نفسيًّا هو في حقيقته "محاولةٌ داخليّة لتجاوز المكان المغلق وقهر الذّلّة المفروضة" (البزرة، أحمد مختار، الأسر والسجن في شِعر العرب، مؤسسة علوم القرآن، ط1، بيروت، 1985، ص495.).

وعليه، فإذا كانت المدينةُ/ الوطنُ –كما سَلَفَ– فضاءً رَحْبًا للشُّعراء فقد شكّلَ السجنُ حيّزًا ضيّقًا تقلّصت فيه الآمال؛ فجدرانه محلُّ اللوعة والأسى، وخلفَ قضبانه تتكاثرُ الحسرة ويتفاقم الألم. وعليه، فالشاعر لمّا ينظم قصيدته في السجن يضمِّنُها آهاتِهِ ولوعتَهُ وَحُرقَتَهُ وأشواقَه، وهو إذ ذاكَ يرسم أفكارَها بريشة مكلومة مِدادُها اليأس، فينتج لوحة فنيّة شكّلها اللفظ، ويبني معمارًا مكانيًّا أساسُهُ الشُّعورُ ومادّته الدَّلالة.

بناءً على ما سَلَف، تظهر صورة المكان عند المُعتَمِد بن عبّاد (ت 488هـ) مغايرةً عن مثيلاتها منَ الصُّور؛ فهو ينطلق في شِعره الحنينيّ من مكان مختلف؛ إذ هو في سجنه في أغمات يشعر بأنّه يجلس معَ إنسان أو شخصٍ –إن صحّ التعبير– يشاركه الحزن فيحزن، ويبكي، ويتأوّه، ويتمثّل ذلك أكثر ما يتمثّل في حضور قصوره، ووجودها الحيّ في شِعره؛ فالمباركُ، والثُّريا، والوحيد، والزّاهي، قصورٌ تبكي أصحابَها بوابل الدّمع؛ يقول[1]:

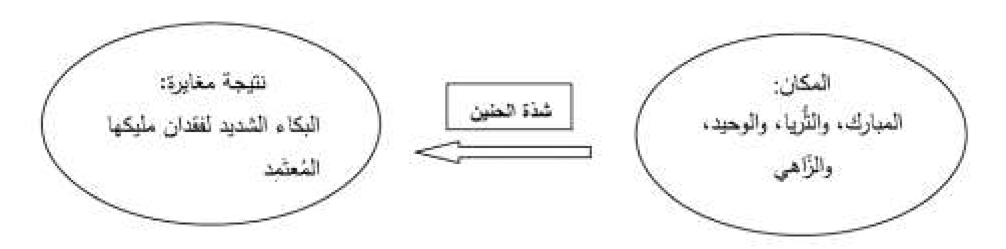
بكــــى المُبــــاركُ فـــي إثْـــرِ ابــــنِ عبّــــادِ ... بكــــى علــــى إثْــــرِ غِــــزلانٍ وآســــادِ
بكــــتْ ثريّــــاهُ لا غُــــمَّتْ كواكِبُهــــا ... بمثــــلِ نــــوْءِ الثُّريــــا الــــرّائحِ الغــــادي
بكــــى الوحيـــدُ، بكـــى الزّاهـــي وَقُبَّتُـــهُ ... والنّهـــرُ، والتّـــاجُ، كُـــلٌّ ذُلُّـــهُ بـــادي
مـــاءُ السّمـــاءِ علـــى أبنائِـــهِ دِرَرٌ ... يـــا لُجَّـــةَ البحـــرِ دومـــي ذاتَ إزبـــادِ

وهنا، تتّضح المفارقةُ الواضحة عند المُعتَمِدِ بنِ عبّاد؛ فهو لم يبكِ المكان، وإنّما تجلّى الحنينُ عندَهُ بأن بكاهُ المكان، ولعلّ ذلك يعود إلى سُلطانه الذي كان في دياره.

ويمكننا توضيحُ هذه الصّورة المُغايرة على النّحو الآتي:

---

[1] أبو القاسم، المُعتَمِد بن عبّاد (ت 488هـ)، **الديوان**، تحقيق: أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، المطبعة الأميريّة بالقاهرة، القاهرة، (د.ط)، 1951، ص95.



إذ يكشفُ المُعتَمِدُ بهذه الصّورة التي قدّمها عن صورة أُخرى هي حنينُ المكان لصاحبه، فكأنّ القُصورَ كانت تأنَسُ بإصحابها، وهو أُسلوبٌ اتّبَعَهُ الشُّعراءُ حتى المُحدثين منهم في حنينهم إلى الأوطان؛ حيثُ يجسّدون المكان فيجعلونَهُ حيًّا بوجود ساكنيهِ وميّتًا بغيابهم. يقول محمود درويش[2]:

"لماذا تَرَكْتَ الحصانَ وحيدا
لكي يُؤنِسَ البيتَ، يا ولدي
فالبيوتُ تموتُ إذا غابَ أصحابُها"

من جهة أُخرى، فنظرةُ المُعتَمِدِ تشاؤميّةٌ؛ إذ تبدَّلَت حالُهُ لمّا سقط من ذروة العزّ والمجد إلى حضيض الذلّ والهوان حتى صار إلى يأس وخذلان، ممّا جعل السجنَ لديه محيطًا مكانيًّا عبّر فيه عن تجربته واصفًا مِحَنَهُ وهمومَه؛ إذ استدعى وهو في سجنه أمكنةً كان له فيها حضورٌ فجعلها تبكي وتنوح، وصاغ ذلك كلَّه في قوالبَ لفظيّةٍ جَزِلَةٍ تميّزت بِحُسْن السّبك ورقّة الأسلوب وجمال الصّورة وسلاسة المعنى، مستعينًا بِتَكرار الفعل (بكى) غيرَ مرّة، الذي أضفى على النصّ الشِّعريّ دَلالاتٍ متنوّعةً وأكسَبَهُ إيقاعًا تَكراريًّا، كما منحَ الشاعرَ لونًا تعبيريًّا خاصًّا مَكَّنَهُ من إظهار مشاعره وانفعالاته على نحوٍ جعلَهُ يتواشَجُ ظاهريًّا وباطنيًّا بمحيطه المكانيّ.

فالمكانُ عند المُعتَمِد كائنٌ حيّ رغم جموده وَخُلوّه مِنَ الرّوح، فإذا ما فقدَهُ رثاهُ مُظهرًا عليه التفجُّع والتحسُّر، وفي هذا تأكيدٌ للصّلة الحميميّة والعلاقة القويّة التي تجمع بينهما، فتراهُ يذكر مفردات الرّثاء من بكاء ونواح وندب ودموع وحزن وأسى ولوعة. هذه إذن صورة الرثاء التقليديّ، فالشاعرُ راثٍ والمكانُ مرثيّ، غيرَ أنّ المُعتَمِدَ بنَ عبّاد عكسها –في ما سَلَفَ– فجعل الأمكنة تبكيه معبّرةً عن ألمها جرّاءَ فقده.

وكانت نكبة المُعتَمِد مضاعفة؛ إذ لم تقتصر على فقده ملكَهُ حَسْبُ، فقد حُمل مأسورًا ومكبّلًا بالأغلال من إشبيليّةَ إلى المغرب، ففارق وطنه ومن يحبّ. وفي هذا السياق يقول لمّا

---

[2] درويش، محمود، **لماذا تركت الحصان وحيدا**، دار الريّس للكتب والنشر، 1995، ص33-34.

دخلت عليه بناتُهُ السجنَ في يوم عيد، وَكُنَّ –من بعد عِزّ– يغزلنَ للناس بالأُجرةِ في أغماتَ فرآهُنَّ في أطمار رثّة وحالة سيّئة، فصدّعن قلبَه[1]:

فيمـــا مضـــى كنـــتَ بالأعيـــادِ مســـرورا — فســـاءكَ العيـــدُ فـــي أغمـــاتَ مأســـورا
تـــرى بناتِـــكَ فـــي الأطمـــارِ جائعـــةً — يغـــزلنَ للنـــاسِ، لا يملكـــنَ قِطميـــرا
بَـــرَزْنَ نحـــوَكَ للتســـليمِ خاشِـــعَةً — أبصـــارُهُنَّ حَســـيراتٍ مَكاســـيرا
يَطَـــأنَ فـــي الطّـــينِ والأقـــدامُ حافِيَـــةٌ — كأنَّهـــا لـــم تَطَـــأ مِسْـــكًا وَكـــافورا

فمشهدُ بناتِهِ الحاضرُ بما يحملُ من قهر حثَّ ذاكرتَهُ على استدعاء ماضٍ لَهُنَّ كُنَّ فيه يعشنَ حياةً رغدة ملؤها البهجةُ والسُّرور. وَبِذا فإنّ بِمُكْنَتِنا القولُ إنّ المُعتَمِد خلّفَ شِعرًا يُعَدُّ ترجمة صادقة لحياته في السجن، يفيضُ حسرة وألمًا وحنينًا وأسًى.

وقد كان للتطوّر الحضاريّ دورٌ بَيِّنٌ في حفز الشُّعراء على وصف الأمكنة، وكذا كان للفتن والمحن والصّراعات والنكبات التي مرّت بها الأندلسُ الدَّورُ نفسُه، فمعالِمُ المكان في شِعر الحنين تتجلّى عند المُعتَمِد حين يذكر القصور التي شادها والحدائق الغنّاء التي مكث بين ربوعها عندما كان ملكًا يتربّع على عرشه في حياةٍ زاهية مترفةٍ عاشها؛ يقول[1]:

غريـــبٌ بـــأرضِ المغـــربيْن أسيـــرُ — ســـيبكي عليـــهِ مِنْـــبَرٌ وَسَريـــرُ
مضـــى زمـــنٌ والمُلْـــكُ مُســـتأنِسٌ بـــهِ — وأصـــبحَ عنـــهُ اليـــومَ وهـــوَ نَفـــورُ
فيـــا ليـــتَ شِـــعري هـــلْ أبيـــتَنَّ ليلـــةً — أمـــامي وخـــلفي روضـــةٌ وَغَـــديرُ
بِمُنْبِتَـــةِ الزّيتـــونِ موروثـــةِ العُـــلا — تُغنّـــي قيـــانٌ أو تَـــرِنُّ طُـــيورُ
بزاهرهـــا السّـــامي الـــذي جـــادَهُ الحَيَـــا — تُشـــيرُ الثُّريـــا نحوَنـــا ونُـــشيرُ
ويَلْحَظُنـــا الزّاهـــي وَسَعْـــدُ ســـعودِهِ — غيـــورَيْنِ والصَّـــبُّ المُحِـــبُّ غَيـــورُ

والمُعتَمِد، في نصّه سالف الذِّكر، عبّر عن نفسه تعبيرًا صادقًا فهاجت أشجانُه، وحملته الذكريات إلى وطنه، فأخذ يتذكّر قصورَه: الزّاهي، والثُّريا، والزاهر، ويتمنّى لو أن يبيت ليلة في وطنه –إشبيليّة– في أحضان الرياض والبساتين الخلاّبة والطّبيعة الفاتنة، فحنينه هنا ليس إلى قصورٍ حَسْبُ، وإنّما إلى الطّبيعة الرّائعة التي كان يعيش في ظلّها وتحت كنفها ولكنه حُرم منها بابتعاده القسريّ عنها.

---

[1] المُعتَمِد بن عبّاد، **الديوان**، ص100–101.

[1] المصدر نفسه، ص98–99.

ومن ذلكَ قولُهُ أيضًا[2]:

تُؤمِّـــلُ للنَّفْسِ الشّجِيّةِ فَرْجَـــةً وتَـأبى الخُطوبُ السُّـودُ إلّا تَمادِيا

لياليـكَ فـي زاهيـكَ أصـفى صَحِبْتَها كمـا صَـحِبَتْ قبلُ الملـوكُ اللياليا

نعـيمٌ وَبُـؤسٌ، ذا لـذلكَ ناسِـخٌ وبَعْدَهُما نَسْـخُ المنايا الأمانِيـا

فهو يُؤمّلُ العودة إلى وطنه الغائب، غيرَ أنّ الخُطوب تأبى ذلك وتحولُ بينه وبينَ الفرح، فيرضى حينئذٍ لنفسِهِ المُتعبة أن ترتميَ في أحضان قصره الزاهي، الذي كان له –وَلِمَنْ قبلَهُ مِنَ الملوك– محلًّا للراحة والطمأنينة والهدوء والسكينة، لكنّ ذلك لم يَتأتّ له أيضًا؛ فهمومُهُ غلبت ذكرياتِه، ممّا جعلَهُ يعقدُ مقارنةً بين زمنين متناقضين ماضٍ وحاضر، مثَّلَ قصرُهُ الزاهي أوّلَهُما وكان السجنُ ثانيَهُما؛ إذ نَسَخَ البُؤسُ النعيمَ كما تَنْسَخُ المنايا الأماني.

وَبِذا فقد شكّلَ المكانُ في النصّ الشِّعريّ بؤرة أنتجت معانيَ كثيرةً وقيمًا تصويريّة متعدّدة انتشرت على طول مساحته، ارتبط فيها الشاعرُ معَ مستويات تاريخيّة وثقافيّة عدّة، فضلًا عن ارتباطه الرئيس بالمستوى العاطفيّ، الذي تجلّى على نحوٍ واضح في اللهفة والاشتياق والأمل في عودة الزمان ورجوع الذي كان.

ولم يقتصر المكان على تلك الأمكنة التي أشرنا إليها، بل تجاوز ذلك إلى تذكّر أماكنَ أُخرى لا يبتعد البؤس والهَمُّ عنها، ففي قرطبة نكدٌ عظيمٌ بفقدِ المُعتَمِد أحَدَ أولاده، وتبعه بأيّام شقيقه الآخرُ في رُندة؛ ليصبح الهمُّ همّين؛ يقول[1]:

يقولـون صـبرًا، لا سـبيلَ إلـى الصّـبرِ سـأبكي، وأبـكي مـا تطـاولَ مِـنْ عُمْـري

هـوى الكوكبـان: الفـتْحُ، ثُـمَّ شَـقيقُهُ يزيـدُ، فهـل عنـدَ الكواكـبِ مِـنْ خُبْـرِ

نـرى زُهـرَها فـي مـأتمٍ كُـلَّ ليلـةٍ تُخَمَّـشُ لهفًـا وسـطَهُ صـفحةُ البَـدْرِ

هـوى بكمـا المِقْـدارُ عنّـي ولـمْ أمُـتْ وأُدعـى وفيًّـا! قـد نَكَـصْتُ إلـى الغَـدْرِ

تولّيتـما والسِّـنُّ بعـدُ صـغيرةٌ ولـم تلبـثِ الأيّـامُ أنْ صَـغّرتْ قَـدْرِي

فلـو عُـدتُما لاخْتَرْتُمـا العَـوْدَ فـي الثّـرى إذا أنتـما أبْصَـرْتُماني فـي الأسْـرِ

أمّا إشبيليّةُ الوطنُ الأكبرُ فلم يذكرها المُعتَمِد غيرَ مرّة واحدة، وسمّاها "حمص" كما كانت تسمّى تقليدًا وتشبُّهًا ببلاد المشرق، وقد اقترن ذكرها بالموت؛ يقول[2]:

---

[2] المُعتَمِد بن عبّاد، **الديوان**، ص117.

[1] المصدر نفسه، ص105–106.

قضـــى اللهُ فـــي حِمْــصَ الحِمـــامَ وبُعثِـــرتْ   هنالِـــــكَ منّـــــا للنُّــــــشورِ قُبـــــورُ

فلم يكن المكان عند المُعتَمِد في القصور الشّاهقة حَسْبُ، بل كان شخوصًا إنسانيّة تبكي أهلها البعيدين عنها وتندب أيّامهم المنصرمة.

ولمّا كان القبرُ مرحلة انتقاليّة أولى للإنسان شغلت ذهنه وشكّلت له حقيقة مرعبة، وكان كثيرٌ مِنَ الشُّعراء قد عاشوا تجربة موت الأهل وَفقدِ الأحبّة فقد ضاق عليهم القبرُ بأبعاده واتّسع في نصوصهم مستوعبًا مشاعرَهم ومحيطًا بأحاسيسهم ومعبّرًا عن وجدانهم، حتى إنه هيّجهم مُشَكِّلًا باعثًا لتجاربهم الشعريّة.

والقبرُ حيّزٌ مكانيٌّ يفصل بين طرفين داخليٍّ وخارجيٍّ يجتمعان في لحظة مِنَ التوهّج العاطفيّ ثمّ يتجاوزان مكانَهُما منتشرَينِ في فضاءٍ أوسَعَ محلُّهُ النصُّ الشِّعريّ، الذي ينفتحُ على معانٍ كبيرةٍ ودلالاتٍ كثيرة. ومن شواهد ذلك في الشِّعر الإشبيليِّ وقوفُ الشُّعراء على قبر يرثون صاحبَه، ومن صاحبُه؟ إنّه المُعتَمِدُ ملكُ إشبيليّة؛ فقبره موجِدُ التّحنان، وموقظ لواعج الصّدر، وهو يستثير مشاعرَ التَّذكّر والشّوق للأيام التي كانوا يقضونها، فابنُ اللّبانة الدّانيّ (ت 507هـ) يتّخذ منه مكانًا يُعبّر له عن ذلك المُلك الذي تهاوى بعدما كان حصنًا حصينًا؛ يقول[1]:

عَهــــدي بِمُلْكِــكَ وهـــوَ طَلْـــقٌ ضـــاحِكٌ   مُتَهَلّـــــــلُ الصَّـــــفحاتِ للقُصّــــــادِ

والمــــالُ ذو شــــملٍ مِـــــذادٍ والنَّـــــدى   يَهْمِــــي وشَـــمْلُ المَجْـــدِ غيْـــرُ مـــذادِ

أيّـــامَ تخفـــقُ حولَـــكَ الـــرّاياتُ فَـــوْ   قَ كتائـــــبِ الرُّؤســــــاءِ والأَجْنــــــادِ

والأمــــرُ أمـــرُكَ والزّمــــانُ مُبشِّــــرٌ   بممالـــــكٍ قــــدْ أذعنَــــتْ وبِـــــلادِ

والخيـــلُ تَمْـــرحُ والفـــوارسُ تنحـــني   بـــــينَ الصّــــوارمِ والقَنـــا المَيّـــادِ

حتّـــى إذا مـــا الـــدّهرُ أظْـــهرَ حِقْـــدَهُ   والدّهــــــرُ للأحــــــرارِ ذو أحْقـــــادِ

ألقَـــتْ بأيديـــها معاقلُـــكَ الـــتي   مُلئــــتْ مِــــنَ العُــــقبانِ والآســــادِ

وتهـــدّمت أركـــانُ كُـــلِّ رئاســـةٍ   وانهـــدَّ حـــولَ المُلْـــكِ كـــلُّ عِمـــادِ

وإذا انقضـــتْ أيّـــامُ مُلْـــكٍ فالعَنَـــا   فـــي غايـــةِ الإكثـــارِ والإعـــدادِ

إذ نلحظ صورة الألم منبعثةً من عمق النصّ بحيثُ تبدو أسيرةً لخصائص المكان/ القبر وَسِماته، فتظهر المشاعرُ والأحاسيسُ غارقةً في بحر الحزن تعاني مرارةَ الأسى، كما تجسِّدُ سلطة

[2] المُعتَمِد بن عبّاد، **الديوان**، ص99.

[1] ابنُ اللّبانة، الديوان، ص201–202.

المكان/ القبر لدى الشاعر بترميزها ودلالتها ظاهرةَ انثياله العاطفيّ وفيضه الشُّعوريّ؛ إذ يدخل الحزنُ عنصرًا فاعلًا في النصّ بين الأنا والآخر/ القبر، ممّا يؤدّي إلى انشطار ذات الشاعر وتشظّيها، فيصبح الآخَرُ المرثيُّ مهيمنًا على النصّ متحكّمًا فيه.

ويخلق التنوُّعُ في الخطاب حيرة لدى الشاعر في تمظهرها داخلَ النصّ؛ إذ هي تسعى إلى إظهار مقدار فيضها العاطفيّ وانثيالها الشُّعوريّ على نحوٍ يشي بقدر عالٍ مِنَ الانتماء إلى الآخر، في مشهد سرديّ شكّلت فيه البؤرة المكانيّة/ القبرُ مركزَ اتصال وتفاعل معَ الذات.

ولو أنعمنا النَّظر في معجم النصِّ اللُّغويّ لوجدنا ألفاظًا وتراكيبَ تتلاقح في ما بينها على مستوى الوصف وعلى صعيد الدَّلالة لتنتج صورة شِعريّة يستقيم مشهدُها داخلَ إطار القبر المكانيِّ وطبيعته، ممّا أفرز آهاتٍ موغلةً في العُمق الوجدانيّ. كما أسهمت أفعالُ النصّ الماضية (أذعن، وأظهر، وألقى، وتهدّم، وانهدّ) والمضارعة (يهمي، وتخفق، وتمرح، وتنحني)، فضلًا عن صوره الشِّعريّة في خلق مسار نصيّ يشتركُ فيه الجانبان الحِسيّ والمعنويّ؛ حيثُ يتمظهر الجانبُ الحِسيُّ حين يرنو الشاعرُ بعينه إلى المتلقّي ليجعلَ منه مشاركًا وجدانيًّا، وَيُدرَكُ الجانبُ المعنويُّ ذهنيًّا مِنَ التلاقح الدَّلاليِّ بين مضمون الأفعال والفضاء النصيّ، ممّا نجم عنه تأزُّمٌ شُعوريٌّ ظهر جليًّا في حبكة النصّ العاطفيّة.

ولم يكن حنينُ شُعراء الأندلس في إشبيليّة زمن ملوك الطّوائف مقتصرًا على الوطن حَسْبُ، بل حنَّ بعضهم إلى زوجته، مستذكرًا أيّامه الجميلة مَعَها، فالمُعتَمِد ابن عبّاد أحدُ هؤلاء الشُّعراء الذين برز المكان جليًّا في حنينهم، فحين يسألُ المكانَ الذي أطال فيه المكثَ بعيدًا عن زوجته "اعتماد البرمكيّة" تراهُ يشكو طولَ بقائه فيه، واصفًا إيّاهُ وقد حالَ بينه وبينها، وَمُجريًا موازنةً بين مكانين: سجنه في أغمات وأثره فيه وفي تأجيج مشاعر الحنين، ودار المحبوبة والزّوجة "اعتماد"؛ فالسجن دارٌ للنوى والفراق، وهو قاضٍ بطول المَكث فيه، أمّا دار المحبوبة فدارٌ تقيم فيها زوجته التي وصفها بالهيفاء والغيداء، ويتابع المُعتَمِدُ بيانَ مكانة زوجته الرفيعة في قلبه، يقول[1]:

أدارَ الهوى كمْ طالَ فيكِ تلذُّذي ... وكمْ عُقتِني عنْ دارِ أهيفَ أغيدِ
حَلَفْتُ بهِ لو قَدْ تعرّضَ دونَهُ ... كُماةُ الأعادي في النّسيجِ المُسَرَّدِ
لَجَرّدْتُ للضّربِ المُهَنَّدِ فانقضى ... مُرادي، وعَزْمًا مِثْلَ حَدِّ المُهَنَّدِ
فما حَلَّ خِلٌّ مِنْ فُؤادِ خليلِهِ ... مَحَلَّ "اعتمادٍ" مِنْ فُؤادِ مُحَمَّدِ
ولكنَّها الأقدارُ تُرْدِي بِلا ظُبًا ... وتُصْمي بِلا قَتْلٍ، وتَرْمِي بِلا يَدِ

[1] المُعتَمِد بن عبّاد، **الديوان**، ص 9–10.

وها هو ذا ابن زيدون يحنّ إلى محبوبته "ولّادة" التي أخذت منه كلَّ مشاعره وأحاسيسه، يسألها أن تبقى وفيّةً على العهد، مستذكرًا أيّامَهُ الجميلة التي قضياها معًا في عشقٍ وائتلاف؛ يقول[2]:

يـا سـاريَ البـرقِ غـادِ القَصْـرَ واسْـقِ بـهِ — مَـنْ كـانَ صِـرْفَ الهَـوَى والـوُدَّ يَسْقِينـا

واسْـأَلْ هنالـكَ هَـلْ عَـنّى تَذَكُّـرُنا — إلْفًـا، تَذَكّـرُهُ أمْـسى يُعَـنّينا

ربيـبُ مُلـكٍ كـأنّ اللهَ أنْشَـأَهُ — مِسكـًا، وقَـدّرَ إنشـاءَ الـوَرَى طِـينا

نَـأْسى عَلَيْـكِ إذا حُثّـتْ مَشَعْشِعَـةً — فينـا الشَّمـولُ وغنّانـا مُغَنّيـنا

لا أكْـؤُسِ الـرّاحِ تُبْـدي مِـنْ شَـمائِلِنا — سِـيمَا ارْتِـياحٍ، ولا الأوتـارُ تُلْهينـا

دومـي علـى العهْـدِ _مـا دُمنـا_ مُحافظـةً العهْـدِ — فالحُـرُّ مَـنْ دانَ إنـصافًا كمـا دِينـا

إذ كشف ابنُ زيدون عن أثر المكان الذي كان يقضي فيه معَ ولّادة أجملَ اللّحظات من لهوٍ وشرب للخمر، ولكنّ هذا المكان تحوّل وتغيّر بتغيُّر الأحوال بعد رحيل المحبوبة عنه؛ فلم تَعُد له لذّته، ولم تَعُد أكؤس الخمر تُظهِرُ علامات الرّاحة والنّشوة كما كان، وحلّ الحزن محلًّا عظيمًا في نفسه، ويبدو أثرُ المكان جليًّا حينما يصبح غريبًا على ابن زيدون فلا تزيده الغربة إلّا حزنًا وأسًى على ما فات، فالمكانُ غيرُ المكان الذي كانا فيه معًا، والخمرُ غيرُ الخمر التي كانا يتساقيانها معًا، ومجالسُ اللّهو بادت واختفت معالمُها الجميلة باختفاء مصدر جمالها.

بناءً على ما سَلَف، نلحظ أنّ المكان أصبحت له مَهَمّةٌ شِعريّةٌ تاتّت من طول علاقة الشاعر به، كما أصبحت له أبعادٌ متعدّدةٌ نابعةٌ مِنَ استحضاره واقعيًّا وخياليًّا حين يعبِّرُ عنه من خلال تعايشه الحقيقيّ مَعَه، أو يسبح فيه مُستحضرًا إيّاهُ في مخيّلته الشِّعريّة، وهو بذلك يُعيد إنتاجَهُ من خلال ما عَرَفَهُ عنه وما استوحاهُ منه وما يمنحه من إنسانيّته، مازجًا الواقع بالخيال، وموظّفًا وعيَهُ الشِّعريَّ في بناء دَلالات إبداعيّة ورموز فنيّة تسهم جميعُها في شِعريّة النصّ.

وَبِذا، فالمكانُ منطلقُ الشاعر ومنتهاهُ في تشكيل نصّه الشِّعريّ المعبِّر عن المكان؛ إذ "العلاقة بين الشِّعر والمكان عميقةُ الجذور متشعّبة الأبعاد، ومن خلالها قد يَصُبُّ الشاعرُ على مكان ما طابعًا خاصًّا فيحوّله من مسكن خَرِبٍ إلى طلل مثير، ومن حجر أصَمّ إلى شاهد على لحظات مجد أو وجد"[1].

[2] ابن زيدون، **الديوان**، ص10-11.

[1] درويش، أحمد، **في نقد الشِّعر: الكلمة والمجهر**، دار الشروق، ط1، 1996، ص84.

وعليه، فقد أبدع شُعراءُ إشبيليّةَ في رسم نصوص شِعريّة أظهرت عبرَ مقارباتها الفنيّة تجليات المكان على نحوٍ متباين تمثّلت فيه التجرِبة المعيشة والنظرة الإبداعيّة جَلِيًّا، متجاوزينَ في بعض تلك النُّصوص المعانيَ الظاهرة إلى الدَّلالات العميقة، ومتخطّينَ أبعادَ المكانِ المرسومةَ إلى أُخرى شُعوريّةٍ تولّدت من أثَر ذلك المكان الموصوف لحظة إنتاج النصّ؛ وَبِذا فقد خرجوا من فضائهم الهندسيّ إلى فضاءٍ آخَرَ شُعوريٍّ دلاليّ، محققينَ حضورًا تجاوزوا فيه حدود المادّة، ومنتجينَ بِنًى فنيّةً تحملُ في طيّاتها رموزًا خاصّة.

خاتمة

وبعدُ،

فقد توصّلت الدّراسة في هذا التّجوال في فضاءات المكان إلى طائفةٍ من النتائج، أهمّها:

1. سجّل المكانُ حضورًا ملموسًا في الأدب العربيّ، ولا سيّما الشّعر؛ إذ لحظ النقادُ بصمَتَهُ في النّتاجات الشّعريّة منذ القِدم، وقد تبوّأت تَقَنيّاتُهُ وآلياتُهُ مساحة واسعة ونالت قسطًا وافرًا من عناية الدراسات النقديّة واهتمامها على المستويين الفلسفيّ والفنيّ.
2. عكسَ المكانُ بِوَصْفِهِ باعثًا نفسيًّا أفعالًا إبداعيّة، فهو يحيط بالمبدع بأبعاده الهندسيّة ويحيط به المبدعُ بإدراكه ووعيه؛ لِذا فإنّ الفِعل مُتَبادَلٌ بينهما، فكلٌّ منهما يوجد في الآخر ويحتويه حتى يبدو أحدُهُما انعكاسًا للآخر ومرتبطًا به ودالًّا عليه.
3. تبيّن أنّ حضورَ المكان في المُنجز الشّعريّ حضورٌ خَلّاقٌ له دوافعُهُ المخصوصَةُ وبواعِثُهُ المقصودةُ التي يحكمُ رسمَها المبدع؛ لتصبحَ عالَمَهُ الجديدَ بعد أن خضعت عواطفُهُ ومشاعرُهُ لحظة الإبداع لسطوة المكان وَسُلطتِهِ الدَّلاليّة.
4. أدّى تباينُ الأمكنة في النُّصوص الشّعريّة إلى تباين أثرها وَدَلالتها، واختلفت تبعًا لذلك ألفاظُها وتنوّعت أساليبُها.
5. تناسبَ بناءُ النصّ المكانيّ فنيًّا معَ درجة الانثيال العاطفيّ والدّفق الشُّعوريّ، كما تناغم معَ خصوصيّة التجرِبة الشّعريّة حتى بات المبدعُ شيئًا فشيئًا انعكاسًا للمكان وأصبح تدريجيًّا ممثّلًا لصفاته.
6. كان حضور المكان بارزًا في شِعر الحنين في إشبيليّة، بوصفه أثرًا مؤجّجًا للمشاعر الحنينيّة، وكاشفًا عمّا يختلج في الصّدر من أحاسيس.
7. تنوّعت صور المكان في شِعر الحنين في إشبيليّة، فكان الوطنَ الأُمَّ بما فيه من دَلالات وذكريات، وكان القصرَ الذي كان مكانًا للعزِّ والجاه فأمسى أثرًا بعد عين، وكان مكانَ موت الأحبّة

والأعزّاء الذي ثوّر مشاعر الألم والحنين إليهم، وكان مكانَ لقاء الأحبّة والعاشقين بما فيه مِنْ آهاتٍ وحنين.

8. تميّز شِعر الحنين في إشبيليّةَ زمنَ ملوك الطّوائف بصدق العاطفة وقوّتها؛ فقد عبّر عن مشاعر الإنسان تجاه بلده وعن الهموم والأحزان التي يعانيها مِنْ أثر غربته؛ لذا جاء شِعرًا مؤثِّرًا في النّفس عالقًا في القلب.

9. امتاز شِعر الحنين في إشبيليّةَ بسهولة الألفاظ ورقّتها؛ نظرًا إلى طبيعته، وجاءت معانيه واضحةً بعيدة عن التّعقيد والغريب.

10. يكاد شِعر الحنين في إشبيليّةَ يخلو من المحسّنات البديعيّة باستثناء بعض النماذج القليلة؛ وذلك لعدم التلذّذ في التعبير عن الغربة والحنين.

11. مزج الشُّعراءُ الأشبيليون بين الحنين والطبيعة في شعرهم؛ إذ أشركوا الطبيعة مَعَهم في الحنين، وتشوّقوا إلى كلّ شيء جميل فيها.

12. ظهرت دَلالات المكان في شِعر الحنين في إشبيليّةَ كما يأتي:

أوّلاً: فقدان السّيادة والغَلبة؛ نتيجة تبدُّل صروف الدّهر، وظهر ذلك جليًّا عند المُعتَمِد بن عبّاد.

ثانيًا: الكشف عن صورة المجتمع الإشبيليّ وما يعيشه من ترفٍ ونعيمٍ بالِغَيْن.

ثالثًا: تردّي الحالة السياسيّة، وولوج بعض المفسدين إلى قصور الملوك؛ ممّا حدا بالدّولة إلى السقوط في الهاوية، وتوالي الهزائم عليها.

رابعًا: حرص ملوك الطّوائف على رعاية الأدب والأدباء، ومن بينهم الشُّعراء، بل إنّ وجود شاعر ملكٍ كالمُعتَمِد بن عبّاد زاد من رفعة مكانة الشِّعر آنذاك.

قائمة المصادر والمراجع

1- الأزرقي، أبو الوليد محمّد بن عبدالله بن أحمد، (ت 250هـ)، **أخبار مكّةَ وما جاء فيها مِنَ الآثار**، تحقيق عبدالملك عبدالله دهيش، ط1، مكتبة الأسدي، (د.م).

2- باشلار، جاستون، **جماليات المكان**، ترجمة غالب هلسا، وزارة الثقافة والإعلام، دار الجاحظ للنشر، بغداد، ط1، 1980.

3- بدوي، عبدالرّحمن، **مدخل جديد إلى الفلسفة**، وكالة المطبوعات، ط1، الكويت، 1975.

4- أبو بكر، محمّد بن عيسى ابن اللبّانة الدّانيّ الأندلسيّ، (ت 507هـ)، **الديوان**، تحقيق منجد مصطفى بهجت، مركز البحوث الإسلاميّة العالميّة بماليزيا، ط1، 2001.

5- الجمحيّ، محمّد بن سلّام (ت 231هـ)، **طبقات فحول الشُّعراء**، شرحه محمود محمّد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، 1980.

6- أبو الحسين، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، (ت 395هـ)، **مقاييس اللُّغة**، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، (د.ط)، 1979.

7- حسين، خالد حسين، **شِعريّة المكان في الرواية الجديدة**، كتاب الرياض، العدد: 83، أكتوبر2000م، مؤسسة اليمامة الصحفيّة، الرياض.

8- درويش، أحمد، **في نقد الشِّعر: الكلمة والمجهر**، دار الشروق، ط1، 1996.

9- درويش، محمود، لماذا تركت الحصان وحيدا، دار الريّس للكتب والنشر، 1995.

10- ربابعة، موسى، **تشكيل الخطاب الشِّعريّ**: دراسات في الشِّعر الجاهليّ، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعيّة، الأردن، 2000.

11- سوار، محمّد وحيد الدين، **النسبيّة والشِّعر في الزمان والمكان**، الجمعيّة التعاونيّة للطباعة، دمشق، 2003.

12- ضيف، شوقي، **تاريخ الأدب العربيّ (العصر الجاهليّ)**، القاهرة، دار المعارف.

13- أبو العبّاس، أحمد بن محمّد بن إبراهيم بن خلّكان (ت681هـ): **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق: إحسان عبّاس، طبعة دار الثقافة، بيروت، ج5، (د.ط)، (د.ت).

14- أبو العباس، أحمد بن محمّد المقّريّ التلمسانيّ، (ت1041هـ)، **نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب**، تحقيق: إحسان عبّاس، طبعة دار صادر، بيروت، ج4، (د.ط)، 1968.

15- أبو عبد الله، عماد الدين محمّد بن محمّد الأصفهانيّ، (597هـ)، **خريدة القصر وجريدة العصر**، تحقيق: محمّد المرزوقي وآخرين، الدار التونسيّة للنشر، تونس، (د.ط)، ج2، 1973.

16- أبو عبد الله، محمّد بن شاكر الكُتُبِيّ، (ت 764هـ)، **فوات الوفيات**، تحقيق علي محمّد معوّض وعادل أحمد عبد الموجود، ج2، دار الكتب العلميّة، بيروت (د.ت).

17- أبو عبدالله، محمّد بن عبدالله بن الأبّار القُضاعيّ البلنسيّ، (ت 658هـ)، **التكملة لكتاب الصِّلة**، تحقيق عبد السلام الهرّاس، ج1، طبعة القاهرة، 1955.

18- أبو عبد الله، ياقوت بن عبد الله الحموي (ت 626هـ): **معجم البلدان**، ج1، طبعة دار صادر، بيروت، (د.ط)، 1955-1957.

19- عبد العظيم، علي، **ابن زيدون: عصره وحياته وأدبه**، طبعة مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة، (د.ط)، 1955.

20- العبيدي، حسن مجيد، **نظريّة المكان في فلسفة ابن سينا**، دار الشؤون الثقافيّة العامّة، ط1، بغداد، 1987.

21- عثمان، اعتدال، **جماليات المكان**، مجلّة الأقلام، بغداد، العدد 2، 1986.

22- أبو عثمان، عمرو بن بحر الجاحظ، (ت 255هـ)، **رسائل الجاحظ**، تحقيق محمّد باسل عيون السُّود، دار إحياء التراث العربيّ، ج2، ط3، بيروت، 1969.

23- عنان، محمّد عبدالله، **دول الطوائف**، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط1، 1960.

24- أبو الفضل، محمّد بن مكرم بن منظور، (ت 711هـ)، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، (د.ط)، (د.ت).

25- فوغالي، باديس، **الزمان والمكان في الشِّعر الجاهليّ**، جدارا للكتاب العالميّ، عالم الكتب الحديث، ط1، عمّان، 2008.

26- أبو القاسم، المُعتَمِد بن عبّاد (ت 488هـ)، **الديوان**، تحقيق: أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، المطبعة الأميريّة بالقاهرة، القاهرة، (د.ط)، 1951.

27- مجمع اللُّغة العربيّة، **المعجم الفلسفيّ**، الهيئة العامّة لشؤون المطابع الأميريّة، القاهرة، 1983.

28- أبو محمّد، عبد الجبّار بن محمّد بن حمديس الصِّقليّ، (ت 527هـ)، **الديوان**، تحقيق: إحسان عباس، طبعة دار صادر، بيروت، (د.ط)، 1960.

29- مطلك، حيدر لازم، **الزمان والمكان في شِعر أبي الطيّب المتنبّي**، دار صنعاء، ط1، عمّان، 2010.

30- المنصوري، جريدي سليم، **شاعريّة المكان**، مطابع شركة دار العلم للطباعة والنشر، جدّة، 1992.

31- النصير، ياسين، **إشكاليّة المكان في النصّ الأدبيّ: دراسات نقديّة**، دار الشؤون الثقافيّة العامّة، ط1، بغداد، 1986.

32- النويهي، محمّد، **ثقافة الناقد الأدبيّ**، مكتبة الخانجي، ط2، القاهرة، 1969.

33- أبو هيف، عبدالله، **جماليات المكان في النقد العربيّ المعاصر**، مجلّة جامعة تشرين، سلسلة الآداب والعلوم الإنسانيّة، المجلّد 27، العدد 1، 2005.

34- أبو الوليد، أحمد بن عبد الله بن أحمد بن زيدون المخزوميّ الأندلسيّ، (ت 463هـ)، **الديوان**، شرح وتحقيق: كرم البستاني، دار صادر، بيروت، (د.ط)، 1975.

References

Abd Al'adīm, A. (1955). Ibn Zaidoun: 'asreh wahayāteh wa'dabeh. Cairo: Maktabat Alanglo Almasryyah.

Abu Abdallah, E. (1973). Kharīdat Alqaser wa Jarīdat Alaser. Tunisia: Aldār Altunusyyah lilnasher.

Abu Abdallah, M. (1955) Altakilah Likitāb Alsilah. Cairo.

Abu Abdallah, M. (1973). Fawāt Alwafyyāt. Beirut: Dār Alkutub Al'imyyah.

Abu Abdallah, Y. (1957). Mu'jam Albuldān.: Beirut: Dār Sāder.

Abu Alabbās, A. (1968). Nafih Alttīb min gusn Alandalus Alratīb. Beirut: Dār Sāder.

Abu Alabbās, A. (1972). Wafyyāt Ala'yān wa'nbā' Abnā' Alzamān. Beirut: Dār Sāder.

Abu Alfadil, M. (1955). Lisān AlArab. Beirut: Dār Sāder.

Abu Alhusain, A. (1979). Maqāyyis Allughah. Cairo: Dār Alfikir.

Abu Alqasim, A. (1951). Aldiwan. Cairo: Almatba'ah Alamīryyah.

Abu Alwalid, A. (1975). Aldiwān. Beirut: Dār Sāder.

Abu Baker, M. (2001). Aldiwan. Malisa: Markiz Albuhouth Alislāmyyah.

Abu hayf, A. (2005). Jamālyyāt Almakān fi Alnaqid Alarabi Almu'āsir. Majallat Jami'at Tishrin. Vol 1.

Abu Mohammad, A. (1960). Aldiwan. Beirut: Dār Sāder.

Abu Othman, A. (1969). Rasā'il Aljāhid. Beirut: Dār 'ihyā' Alturāth Alarabi.

Alabedi, H. (1987). Nadaryyat Almakān Fī Falsafit Ibn Sinā. Baghdad: Dār Alshu'un Alshaqafyyah Al'āmeh.

Al-Azraqi, A. (2004). Akhbār Makka wa mā Jā' fīhā min Al'āthār. Cairo: Maktabat Al'asadi.

Aljamahi, M. (1980). Tabaqāt Fuhul Alshu'arā'. Cairo: Matba'at Almadani.

Almansouri, J. (1992). Shā'iryyat Almakān. Jaddah: Matabi' Dar al'ilm lltiba'ah.

Almuwayhi, M. (1969). Thaqāfah Alnāqid Aladabi. Cairo: Maktabt Alkhanji.

Alnasir, Y. (1986). Ishkālyyat Almakān fi Alnass Aladabi. Baghdad: Dār Alsho'oun Althaqafyyeh.

Anān, M. (1960). Duwal ALtawā'if. Cairo: Lajnat Alta'līf waltarjamah walnasher.

Arabic Academy. (1983). Almuajam Alfalsafi. Cairo: Alhayah Alamah lishu'oun Almatabi' Alamiryyah.

Badawi, A. (1975). Madkha Jadīd 'ilā Alfalsafah. Kuwait: Wakālat Almatbou'āt.

Bāshlār, J. (1980). Jamālyyāt Almakān. Bagdad: Dār Aljāhid lilnashir.

Darwīsh, A. (1996). Fī Naqid Alshi'ir: Alkalimah wa Almahjar. Cairo: Dār Alshuruq.

Darwīsh, M. (1995). Limātha Tarakta Alhisān wahīda. Beirut: Dār Alrayyis lilkutub wa lnasher.

Dayf, S. (1960). Tārīkh Aladab Alarabi. Cairo: Dār Alma'ārif.

Foghāli, B. (2008). Alzamān walmakān fi Alshi'r Aljahili. Amman: 'alam Alkutub Alhadith.

Husain, K. (2000). Shi'ryyah Almakān fī Alriwaya Aljadīd. Riyadh: Mu'asasat Alyamāmah.

Mutlik, H. (2010). Alzaman walmakan fi shi'r 'abi altayyib almutanabbi. Amman: Dār Sanā'.

Othman, E. (1986). Jamālyyat Almakān. Baghdad: Majallat Alaqlām, Vol 2.

Rabab'ah, M. (2000). Tashkīl Alkhitāb Alshi'rī. Amman: Mua'sasat.

Siwar, M. (2003). Alnisbyyah wa lshi'ir Fī Alzamān wa lmakāan. Damascus: Aljam'yyah Alta'āwnyyah.